الفصل الخامس

"مها" بهية في الفستان الجديد, ينبعث منها عبق فواح, صفحة وجهها كاملة الاستدارة, بياضها شاهق, مشرب بحمرة طبيعية. وللحمرة وهج, يتماوج طاقة فائرة على الخدين, يمنحها حياة فوق الحياة, ويضفي أنوثة طاغية. والشَّعر فاحم منسدل, حالك مثل ليل مدلهم, يهفهف على الكتفين, وعلى القد الممشوق. والغمازتين ضاحكتين, والشِّفاه ممتلئة قرمزية بلون طبيعي, يكسوها طيف ابتسام خفي, يشي بتأجج القلب المفعم بالسَّعادة. والرَّوح يغمرها فرح, ترسم رتوشها بحذق, فلا يقتصر الجمال على المادة.

الشَّابة رهيفة, والعفوية المتعقلة هي لسان حال ما يمور بالحنايا. لم تعتد أن تكبت شاعرة, نهر شفاف يضج بالحياة, ما بالباطن من شدة الصَّفاء يراه النَّاظرين. جمال "مها" بشقيه, الحسي والرَّوحي, تضافر مع الجو الرَّبيعي, حيث الأشجار تراقصها النَّسمات, تكتسي ثوبًا فضفاضًا من الأوراق اليانعات, وهبات روائح الورود والزُّهور حلوة منعشة, تهفو من الحديقة العامة المتاخمة للشارع محل المسير. الطَّبيعة تواطأت, فاستثارت كل مفردات الجمال, ورسمت بريشة فنان مترع بالفن مشهدًا خلابًا, تحتل الحسناء الفتية بؤرته, تخطو في طريقها لاستلام العمل بالشَّركة الكبيرة.

"مها" تختر, فتثير الخيال, بأنَّ ثمَّة على الأرض نجوم هبطت من السَّماء. الفستان الأرجواني الَّذي ترتديه جديد, وغيره في الخزينة اثنين, اقتصدت ثمنهم من معاش الأب تحسبًا لهذا اليوم. الشَّابة من عائله ثرية غاية في الثَّراء, ليس ثراء البشوات والبكوات, فذاك ماض فات وانصرم, ولكنَّه ثراء الانفتاح, والرَّأسمالية الجديدة, ورجال الأعمال. العائلة الكبيرة مكتظة بالكثيرين من أصحاب المشاريع الكبيرة والثَّروات الضَّخمة, "مها" وأمها وحدهما من سقطا

خارج هذا النِّطاق, فتأرجحا في منطقة وسطية بين الغنى والفقر, في ذلك الحيز الَّذي يُطلق عليه ميسوري الحال, يؤمِّن وجودهما في هذه المنطقة الحرجة معاش الأب الكبير, الَّذي غادر الحياة ووحيدته في العاشرة من العمر, تاركًا الزَّوجة تقود سفينة الحياة بمفردها, هي القائد والرُّبان.

الأم طيبة, مُضحية, أفنت جمالها واعتكفت ابنتها, لِما علمته من طبيعة "زوج الأم", وأنَّ الرَّجل بطبيعته لا يُحب الشَّراكة في الأنثى التي احتجز في عرين سلطانه, تدفعه غريزته للاستئثار بها وحده, يتأفف من لحظة تفكير يمارسها عقل أنثاه فيمن سواه, ولو كانت لمحض طفلة وحيدة ضعيفة. الأم من الذَّكاء لأن تعلم, أنَّها بطبيعتها المسالمة الطَّيعة, ولين عريكتها, لن تقدر على صنع حالة من الاتزان تمكنها من الاحتفاظ بهما معًا, الزَّوج و"مها", فلم تجد بديلًا من التَّقوقع في كهف التَّرمل, تكمد فوهة نفسها على كل رغبة في خوض تجربة جديدة, متفرغة تمامًا لابنتها "مها", تتوسم أن يكون حالها أفضل من الحال.. وقد جاءت البنت مثل زهرة برية بديعة, تتفتح بالجمال والسِّحر يومًا بعد يوم, تنير الدُّنيا وتعوضها بحبها عمَّا أضاعته وسلبته منها الأيام.

والعائلة الثَّرية تتابع عن كثب, تُعطي بقدر, دَفَعات محسوبة تُخرج السَّفينة من كبوات الأيام إذا ما تعثرت, مثلما هو حادث اليوم, قد توسط أحدهم ل"مها" لتعمل في شركة مستثمر كبير يُدعى "فايز". وها هي تخطو فرحة في الطَّريق لاستلام العمل, أكثر ما يسعدها أنَّها لن تعمل في إحدى شركات العائلة, وهي التي حاولت مرارًا أن تتحصَّل على عمل مناسب بلا مساعدة, ولكنَّ الظُّروف الجارية لم تكن تسمح بغير الوساطة, كل شيء يدار بترتيبات أكبر من أن يستوعبها من هم خارج دائرة الكبار.

وإن توسط أحد الأقربين, لتحصل على وظيفة سكرتيرة مدير عام الشَّركة, فإنَّ هذا لم يقلل قدر السَّعادة كثيرًا, يكفيها أنَّها لن تشعر أنَّهم يمنون عليها بالرَّاتب نهاية الشَّهر, وقد تصير حرة نفسها يومًا, فتنساهم وينسونها, وتكون مساعدة العمل هي آخر الأيدي عليها. العلاقة ليست علاقة كراهية تجمعها بالأهل, بقدر ما هو إحساس العزيز إذا ما انقلب عليه الدَّهر, وهي التي عاشت في النَّعيم بأبهى صوره حينًا من الزَّمن, ورغم حداثتها في ذلك الحين, تقدر أن

تفرق بين ما كان وما هو كائن, وأنَّ أعمامها قذفوا لأمها الفتات, زاعمين أنَّ الأخ الَّذي أخذه الموت كان موظفًا كبيرًا, وأنَّه لم يكن يشارك في أعمالهم الحرة إلا بقسط زهيد من المال والوقت. هي ليست ناقمة, ولا تكذبهم, ولا تحمل غلًا ولا ضغينة, ولا تنتوي الانتقام إذا ما كبرت واشتد ظهرها, كما يحدث في أفلام السَّينما, ولا مقاضاتهم لتعرف حقيقة حق أبيها, ولكنَّها تبغي حياة جديدة, أن ينفك سوار العطف المفتعل والشَّفقة المصطنعة من معصمها, فلا تبدو مثل كويكب مرغم على الدَّوران طوال حياته حول النَّجم البراق في كبد سماء مجتمع الكبار. أن تصنع مقدراتها بنفسها, بحلوها ومرها, دونما تدخلات إنسانية من أحد لدفع السَّفينة إذا ما أصابها عطب, هي من ستشمر عن ساعديها وتدفع بكل العزم والقوة, ولن تقبل بالدَّنية وموقف من يحتاج المساعدة.

قد يبدو لوهلة من كوامنها أنَّها معقدة, أبدًا, هي أبعد ما يكون عن هذا, "مها" مرحة للغاية, منطلقة لأبعد الحدود, في مرحلة سنية متقدمة, حينما كانت في الثَّانوية العامة, كانت تبدو كما إوزة منتفشة الرِّيش, تمرح في الماء وقت العصاري, تتكلم, وتضحك, وتلقي القفشات والنَّكات في تعاقب مدهش, حتى أنَّها كانت تلهث أثناء الحديث المنهمر من فمها الجميل من شدة المجهود الَّذي تبذله. وقد كان من طبيعتها العفوية, في تلك الفترة العمرية, الفائرة بالعنفوان والطَّاقة, أنَّها لم تكن تكترث للناس. طير بري, لا يعرف غير الحرية والفرح, ما يكمد روحه الخلابة أن يشعر يومًا بقيد. ولا يخطر بالبال, أنَّها في مقابل هذا الانطلاق, والرَّغبة العارمة في الحياة والحرية, أنَّ بها حماقة, أو تهور, أو تبلد! أبدًا, لم يكن بها أيًا من هذا. الشَّابة الفتية عصفور رهيف يقتله الأسر, كائن خرافي لا يقبل التَّدجين! ومن ناحية المشاعر, فقلبها رقيق لا يحتمل, فكم مزقتها نظرات الأسى في عيني أمها؛ كلما ألمت بسفينة حياتهما ملمَّة, وكم عاشت تئن في نفسها وعلى شفتيها ابتسامة كما البلسم, وفي صمت تنكت الأرض عن حل. علمتها الحياة معالجة الصِّعاب, لا أن تتسمر تندب الحظ. حال العزيز إذا ما دارت به الأيام, يكتم فوهة نفسه على الألم, ولا يتفوه بلفظة وجع.

وتخرجت "مها" من كلية التَّجارة, جامعة عين شمس, وقد صقلتها الحياة

أكثر, وخلقتها خلقًا جديدًا, لونتها وشكلتها, أخذت منها وأضافت إليها, شذبت الانطلاق شيئًا قليلًا, ومنحتها روعة الطِّمأنينة, قطفت الزَّائد من غصون العفوية, وغلفتها بالرَّوية والتَّأني؛ فتحولت الإوزة منتفشة الرِّيش, في شيء كما السِّحر, إلى بجعة ساحرة, خرافية, خارقة.

وها هي تتهادى على الطَّريق لتخوض مُعترك الحياة.

***

أشعر بالاختناق, مادية شديدة الثَّقل ترزح على كاهلي, تزهق روحي, تعيق حركتي؛ إنَّه الكرش المنتفخ, وأرطال اللَّحم المتكلس. ما زلت متمثلًا في شخص الشُّرطي البدين, بكل زخمه وبشريته, منذ غادرت "ياسين" في شقته الرَّثة على سطح العمارة النَّائية.

رغبة عنيفة تجتاحني, أن أتمثل أشف الكائنات وأرقها, أصير فراشة فأطير, أخفق بجناحين, أهرب من الأرض, من طينها ولزوجتها. أبتعد, أبتعد. أقطع كل الأواصر. أنسي مأزقي مع الحياة, أقترب من السَّماء, أناجيها, علها تحنو علي وتأخذني. علها تترفق بي, تُسقط ما علق بي من مادة, وتبتر ما يقيدني بالأرض والبشر. سأتضرع, سأرتدي مسوح الرُّهبان, وأقدم فروض الطَّاعة, وأبتهل وأتبتل, كما عابد وسمته الذُّنوب بالحزن والألم, ينشد السَّكينة والنَّجاة بالتَّسابيح والتَّراتيل والصَّلاة, لعله ينول الغفران. سأقول بكل خشوع وتذلل؛ أنَّني ابنًا لها وحدها, ابن بار, لم يفقد انتمائه يومًا للوطن البعيد, الوطن الأم, للرغبة في الخلاص, ولم أكن يومًا ابنًا للطين, فقط قدماي غرزتا رغمًا عني, وجدتهما مكبلتين وأنا قيد التَّحليق إلى فضاءك الممتدة وأفقك الرَّحيب, إرادة علوية حتَّمت عليّ المكوث, إرادتك أنت أيتها السَّماء الرَّحيمة. لست معترضًا على قدرك, قانتًا من حكمتك, حاش أن أعترض, وهل أنا اعترضت يومًا على مشيئتك أيها الرَّب؟! ألم تدور بي الدَّوائر منذ الأزل وبدء الخليقة, بين سماء وأرض, أتلبس أجساد البشر تارة وأنعتق روحًا أخرى.

ألم أعش قبل هذا الزَّمان وهذا المكان, في أمكنة وأزمنة عديدة! وأنَّني كنت أكثر من حياة "فايز", هذا القتيل الَّذي أنا مكلف بالانتقام من قاتله! قد كنت

"كاسيوس", الجندي الرُّوماني الشُّجاع, تركت عروسي الجميل ولبيت نداء المعركة, فقتلت وقُتلت في قلب الميدان حامي الوطيس, وفي النَّهاية صعدت, أطوف الملكوت الأعلى, أنتظر الأمر من جديد. وفي زمن كنت فلاحًا مصريًا, يدعى "جبريل", طيبًا خلوقًا, أروي الأرض وأحصد الزَّرع. وذات حياة كنت أنثى: "مدام هورتانس", الفرنسية الحسناء, خلبتُ لُب "زوربا" اليوناني, ورقص رقصاته المجنونة أسفل نافذتي ليلًا. أنا حياوات وعوالم, سقطت التَّفاصيل, وبقيت أطياف الذِّكرى باهته, تتراقص في ذهني, مثل زبالة ضوء في مهب ريح. بيد أنَّني كنت أنفلت روحًا حينما يأتي الأمر بالفناء. أمَّا هذه الحالة الوسطية فمرهقة, مقرفة, مقززة, لا أتذكر أنَّها انتابتني يومًا في كل الشُّخوص الذين حللت. أشعر فيها بالضَّعف, فلا أنا بشر من طين تلاؤمه الأرض, ولا أنا روح خفيفة شفيفة تهيم في الملكوت.

"إسفنجي, هلامي, رخو, صلصالي أنا؛ كما شعر "ياسين" الماكر, وارتجف من هول اكتشافه".

الآن أتذكر, أتذكر: ""ماركوس" الشَّبح.. "ماركوس" الشَّبح!".

"ساعة "بج بن" تُعلن منتصف اللَّيل في قلب لندن, العاصمة الضَّبابية الحالمة, "ماركوس" يشرب الخمر بحذر شديد هذا المساء, من المفترض أنَّ أمامه نصف ساعة من الآن ليكون في الموعد المحدد, أسفل منزل اللُّورد العتيق, ينتظر الحبل المتدلي من الشُّرفة الوردية. الخمر جيد هذا المساء, ولكنَّه لا يريد أن يثمل فتفوته اللَّيلة المعربدة, أو لا يقدر على القيام بمهامه كما ينبغي. إن نجح في ري البئر بالماء واللَّعب على أوتار المجون بحذق في قلب الحسناء المهتاجة- انفتحت ليال عشق بهيجة ممتدة. حالة روحية ترفعه الخمر إليها, عالقة بين الواقع والحُلم, الخوف والنَّزق, يصير غير ملتصق بالواقع, فلا ترده الحسابات والمخاوف عن نيل مأربه, وفي ذات الوقت لا يلتحم بالحُلم فيرتخي ولا ينال بغيته. ولا شيء في الدُّنيا يقدر مثلما تفعل الخمر, وحدها تقدر أن تنفض عنه ثوب المحامي الوقور, مُلبسةً ثوب المغامر واهبةً سيف المغامرة.

زوجة اللُّورد ليست أول النِّساء في حياته العربيدة خفاءً, فهو قد نال من زوجة

أستاذه, الَّذي دربه على أصول المحاماة, كثيرًا حتى عافها. كانت سيدة تقترب من الخميسين, جذوة الحب بها عفية, مسحة جمالها الغارب وحدها ما كانت تعينه لينتهي, يغض الطَّرف عن كمَّ التَّجاعيد والتَّرهلات هنا وهناك. ولكنَّه في فترته الأخيرة لم يعد يطيقها, ضجرها حد الملل, وما أن فتح مكتبًا مستقلًا يمارس فيه المهنة منفردًا, حتى قطع كل أواصر الصلة بأستاذه إكرامًا لها. وعلى أريكة مكتبه الجديد كانت صولات وجولات, مع سيدات أرستقراطيات وغير أرستقراطيات, لم يخجل من مضاجعة سيدة متزوجة أو عذراء شابة, إلى أن وقعت عيناه على زوجة اللُّورد الشَّابة, أروع النِّساء التي قابل على الإطلاق جمالًا وفتنة؛ عيناها ناعستان, محرضتان, متواطئتان, وجهها مُربد بشهوة لا تفتر, وكأنَّ بئرًا سخيًا فائرًا ضاربًا في أعماق الأرض يُغذيها, قدها ريان في غير امتلاء, هضابها وسهولها تزعق بالمغامرة.

قال اللُّورد الكبير, وعضو مجلس النِّواب السَّابق, في اللَّيلة السَّابقة لليلته هذي:

- رغم حداثتك فأنا أثق في قدراتك كثيرًا.

ابتسم للإطراء, فيما يلقي نظرة على الحسناء تُقلم أظافرها بالجوار, وعلى وجهها يتماوج ملل مثير. تبدو المرأة كما قطة اعتادت التَّدليل يُضجرها غفلة صاحبها العجوز. القطط لا تمل اللَّهو والعبث, ينغص حياتها الجد والصَّرامة. كما أنَّه, وهو الشَّاب المدرك لجموح الشَّباب وشهوته, يعلم ما تقدر أن تفعل فجوة السِّن بين رجل تخطى الخمسين وامرأة شابه ريانة لم تتجاوز الثَّلاثين بعد.

أجاب الشَّاب "ماركوس" اللُّورد العجوز بنصف وعي, يطرد خواطره الماجنة سريعًا:

- هذا من دواعي سروري سيدي.

ابتسم اللُّورد ابتسامة طارئة, ما لبث أن لفظها الوجه الوقور:

- دائمًا ما أراهن على الشَّباب.

رد الابتسامة بابتسامة كما تقتضي اللِّياقة:

- هذه حصافة عقل سيدي, لرجل مرَّسته الحياة.

لمح "ماركوس" ابتسامة مستخفة, تجتاح الحسناء المرابضة بالقريب, ملقية أذنيها ترهف السَّمع.

- أمامي سفر من أجل الانتخابات المقبلة.

قال اللُّورد, يرتب أوراقًا كثيرة, وضعها في حقيبة جلدية أنيقة. أجاب "ماركوس":

- لا تقلق سيدي, كل شيء سيكون على ما يرام, سأبذل قصار جهدي من أجلك.

ربت العجوز على كتف "ماركوس" العريض ممتنًا:

- واثق تمام الثَّقة.

خطف "ماركوس" نظرة للحسناء, تُمسك مروحة ورقية تخفف من حدة حرارة وجهها المربد بالأفكار الماجنة.

خرج "ماركوس" من الحانة القريبة من بيت اللُّورد يتطاوح, سرقه الوقت وعب من الخمر أكثر من المفترض, متجاوزًا الحالة الرَّوحية المنشودة بكثير, ومؤشر السُّكْر وصل لأقصى مداه. جودة الخمر أنسته التَّعقل, وكثيرًا ما تفعل. رغم وقاره الظَّاهر شيئان يسلبانه الرُّشده؛ النِّساء والخمر. لا يجد "ماركوس" فارقًا كبيرًا بينهما, ففي عقيدته: "الخمر تقود للنساء, والنِّساء تقود للخمر".

"ماركوس" في مكتبه يمارس المحاماة بكل الجد والوقار. حلته مشدودة, أنيقة غاية الأناقة, منسجمة مع جسده الرِّياضي الممشوق, ونظرته حيادية عميقة, وكلماته شحيحة بليغة وافية, ولا يخطر للسيدة المواجهة أنَّها أمام عربيد يمتلك زخمًا من المجون, وأنَّ عينيه النَّافذتين تُعريها, ولا تترك تفصيلة من هضاب الجسد وسهوله إلا وجاست وارتقت. يفعل ذلك بمنتهي التَّروي والحيطة, يتمدد في العلاقة بخطوات مدروسة, ويعلم بحنكة صياد خبير أزمنة الكر والفر.

يُفكر في العودة هذا المساء, على أن يعود في المساء التَّالي. أجهض الفكرة في مهدها, ساخرًا من مجرد التَّفكير فيها. مد الخُطى قدر المستطاع, يتطاوح ريشه في مهب الرِّيح. مرت ساعتان منذ أعلنت ساعة "بج بن" العتيقة تمام منتصف اللَّيل. لقد تأخر ما يزيد عن السَّاعة ونصف السَّاعة عن الموعد المحدد, تطل الحسناء من النَّافذة قلوقة. أطلق صفيرًا لتُدلي حبلًا كما الاتفاق. بعد جهد وصل "ماركوس" لحافة النَّافذة في الدَّور العلوي, مدت الحسناء يدها البضة لتساعده, منبت الصَّدر العاري يفضح نضج التَّفاحتين أسفل الغلالة الرَّقيقة, ويشي بتأجج البركان. الخمر والنِّساء اجتمعتا على "ماركوس"؛ فمد يده يفض الغلالة عن الجوهر المكنون, ناسيًا الموقف الحرج على حافة النَّافذة.

صرخة "ماركوس" المروعة, ظلت تُطارد الحسناء اللَّعوب في نومها ما بقي في عمرها من سنين طوال, هي وحدها ترى شبحه يترنح ليلًا في الشَّوارع المتاخمة للبيت, يتسلق الجدران رغبة في الوصول لحجرة النَّوم الوردية. وبعد جهد أقنعت زوجها اللُّورد أنَّ شبح المحامي "ماركوس" الَّذي جاء يسطو عليهم ليلًا, فدُكت عنقه, لن يبرح البيت, وأنَّه لا مفر من بيع هذا البيت وشراء بيتًا جديدًا في ضاحية بعيدة من ضواحي لندن"

هأنا أتذكر حياة منصرمة بعيدة, انفلت منها شبحًا ولم أنفلت روحًا, تمامًا كما حالتي الآن, مكثت على الأرض شبحًا ل"ماركوس" لزمن طويل, أطوف شوارع لندن وحواريها الضَّيقة بحثًا عن الحسناء التي دُكت عنقي من أجلها! والآن أتذكر كيف انفكت عقدة مكوثي على الأرض لأنطلق إلى السَّماء! فما غادرت الأرض إلا بموت الحسناء اللَّعوب بعد عشرات السَّنين!

الآن أتذكر. لحظة صعود روحها إلى السَّماء, تساقط ما علق بي من مادة وارتقيت أنا الآخر. صار لدي يقين أنَّ ثمَّة ما يربطني بالأرض, ووجودي عليها مرتبط بمتى فُكت عقدة الارتباط اللَّعينة.

البحث. البحث, كما يُردد جدي "طوسون"!

***

الفراشة بُغيتها الضَّوء كقدر حتمي, تبحث عنه وتبتغيه, هو القِبلة والمبتغى. الآن أنا فراشة, تطير في حُلكة اللَّيل بين أشجار الحديقة. فراشة مغايرة تنشد السَّكينة والهدوء, كقدر أتمنى خلقه لنفسي. أن أنتحي بنفسي بعيدًا عن نفسي, أن التَّحف الصَّمت. صمت أبدي لا يغزوه هسيس العابرين.

نسمة المساء منعشة, تداعب أجنحتي برفق وحنو, تهدهدني كأُمٍ تنشد سكينة الرَّضيع. أشعر بأنمال الخدر تدب في أوصالي, أفعى تتسحب بحثًا عن وليمة عشاء, وطيف رغبة في نوم تداعبني. أُنحي إرادتي, وأترك جسدي الرَّهيف لهبات النَّسيم, أطير طيرانًا شراعيًا, بلا خفق أجنحة, بلا توجيه لجسد. أنا أكاد ألامس أنا, الَّذي أتمناه, وأفتقده. حقًا شبح, متأرجح, عالق, غير أنَّ الرَّوح داخلي تغالب المادة, تكبلها وتسيطر عليها, لها اليد الطُّولى, والإرادة العليا, على عكس حالتي المزرية عندما قدمت من عند "ياسين".

"ماذا تقدري -أيتها الفراشة- أن تمنحيني أكثر, تعوضيني ساعات النَّكد؟!" تسأليني: "ماذا تريد؟" لن أجيبك أنَّني أبغي الذِّهاب, فأنت تعلمين, ولن أُحمِّلك فوق ما تطيقين, فالذِّهاب أمره مستحيل بدون تحقيق الشَّرط, بيد أنَّني أسألك السَّعادة, راحة البال, أن أصمت حتى قيام السَّاعة, فلا أنا أتكلم, ولا يحدثني أحد.

خفقات عنيفة في الهواء لأجنحة عفية في الطَّريق, تترصدني, تبتغيني, انتزعتني من سطوة الخدر, وروعة التَّحليق في العدم, خطفتني من شذرات السَّعادة المسروقة من أنياب الزَّمن. أشعر بروائح الشَّر كامنة بين طيات النَّسيم, ووميض عيني القادم المندفع لا يبشر بخير. طائر ليلي انتفض من مكمنه كما عفريت اللَّيل, أغرته الفراشة المنتشية بروعة المساء, كوجبة دسمة للعشاء, فانتفضت إلى كوني شبح لا يهاب الجان؛ ففزع وهرب, وسقطت أضحك, لا أدري؛ من خوفه أم من حالي!

وجعل حنقي ينهشني, يلتهم سكينتي الموبوءة بالقلق, المسكونة بالهم, وكأنَّ الزَّمن بجبروته وقسوته يقتص من لحظات الهناءة, المنفلتة من سطوة إرادته في حتمية البؤس وديمومة الشَّقاء. من غيظي, انطلقت كلبًا, أسودًا شرسًا, ورحت أجوب الشَّوارع المعتمة المتاخمة للقصر, أزمجر, وأنبح, وأنهب الأرض

أطارد المارة بكل الشَّراسة, يتساقط من شدقي زبد غاضب مخيف. والمارة مرتاعون, يهربون, كما قطيع دجاج هاجع في حظيرة اقتحم خلوتهم ذئب, وهم الآمنون. والصُّراخ يندلع ويدوي. هذه الأم من هول مشهدي هربت تاركةً طفلها في عرض الطَّريق, وهذا كسيح على كرسيه المتحرك, فر مرافقه! ورحت أتشمَّم خوفهم ملتذًا, أملأ رئتي, أنتشي من الضَّعف المعشش في بني آدم منذ أبد الآبدين. هكذا أنتم أيها البشر الفانون, وأنا الخالد, هذه حقيقتكم, لحظة الخطر تسقط الذَّاكرة, ولا يعني المرء إلا ذاته الهشة.

ولمَّا أفقت من غضبتي الطَّارئة, وجدت العيون مسلطة عليّ, والرَّجاء في عين الكسيح نحرني, والذُّعر في عين الصَّغير هدني, وتملكني حنق شديد من نفسي, وكوني صرت من مخابيل الأشباح.

وأخذتني دوامات التَّساؤل, وما أدراني أنَّ الخبل ليس صفة لصيقة بنا, ملازمًا لكل شبح, هو خالقنا وصانعنا, يهبنا بعضًا من لآلئ جنونه, وشيئًا من تباريح نزقه, ليغدو المخلوق شبهًا بالخالق, يحمل صفاته وبصمته الجينية, وما يكون منا – نحن معشر الأشباح- سوى أن نرد إليه الجميل؛ فنعيد خلقه ونجدد دماءه, في دورة درامية هزلية بين الخالق والمخلوق لا تنتهي!! وما أدراني أنَّ الخوف المعشش في قلوبنا الرَّخوة, ليس ما يدفعنا لترويع البشر ونشر الذُّعر, يجعلنا نتمثل لهم فيما يرتعبون ويخافون. يطفح ما في الباطن المتأجج بالصِّراع على السَّطح, فننتقم لذواتنا الهشة الضَّعيفة بإشاعة الخوف بينهم, ومن الضَّعف الملتوي في حنايا نفوسنا, بأن نستشعره ضاريًا ضاربًا في قلوب الآخرين, ليتساوى الجميع فلا نشعر بالنَّقص والعجز, وأننا بائسون عالقون بين السَّماء والأرض.

ومن ضجري تمثلت ذبابة, وجعلت أطن, وأطن, أدور, وأدور. التقمني خفاش, صرت في لحظة طعامًا يُطحن بين أسنانه, نثارًا في معدته, وضج السُّؤال:

"هل مت, هل انتهيت؟! هل خَلُصت؟!".

"مرحى! مرحى!"

ولم تكتمل سعادتي! وجدتني أنساب مع الزَّفير, أتخلق من جديد, "فايز" بكل تفاصيله!

وجلست أبكي وأنتحب! ولا دموع!

وعدت ألعن طامتي الكبرى, تبًا لها وألف تب, تبًا للذاكرة المتكلسة اللَّعينة, تأبى أن تمدني بالحقيقة, أو مجرد ضوء أسير على هداه! حتى الطَّفرات, وقد كانت تأتيني على فترات, غاضت وذهبت! ولا سبيل أمامي سوى البحث, أن أخرج من قمقم القصر, وأجول في فضاء الدُّنيا أبحث عن حقيقتك التَّائهة العصية يا "فايز"!

"هل كنت متزوجا يا "فايز"؟!"

"من هي؟!"

"كيف قُتلت؟!"

"من قتلها؟!"

لقد كنت على شفا المعرفة, لدي حدس أنَّ "ياسين" الماكر يمتلك الكثير من مفاتيح الألغاز, العجوز لديه ريبة منذ وجود "فايز" حيًا يرزق, ما يعني أنَّ الغموض محيط ب"فايز" منذ حياته, وليس فقط من طريقة مصرعه. أفكر أنَّني, إن علمت بخبايا العجوز ورتقتها مع ما يأتيني من دفقات, فلربما التئم ثوب الحقيقة, وانكشف لغز القتل. غير أن العجوز صار ورقة محترقة, فما زرعته اللَّيلة في نفسه من رهبة, لن يجعل عقدة لسانه تنفك كما أرجو!

"أيتها الدَّفقات اللَّعينة متى تعودين؟!"